عبادة الذكاكير عند العرب

من اغرب العبادات المعروفة والمنتشرة على وجه الارض : « اكرام بعض العروض او الاشياء المنحوتة والمجهود لها والاعتقاد انها آلهة وهي في اغلب الاحيان تشبه بعض المخلوقات الارضية من نبات وحيوان » وهي غير الوثنية لان الوثنية هي عبادة الاصنام التي يعتقد عبّادها انها صور الالهة او الالهة قد حلّت فيها

وقد سمّى علماء الافرنج هذه العبادة الغريبة باسم « فتيشيسم Fétichisme » وعرّبها بعض كتاب هذا العصر باسم « الفتيشية » والكلمة من فتيش fétiche وهي برتغالية الاصل . الاّ ان اهل العلم لم يتفقوا على تعيين اللفظة الاصلية التي أخذت منها . فمنهم من قال انها من fatum ومعناها القدر كما اشتقوا من هذه اللفظة كلمة fée وبالايطالية fata ومعناها الجنيّة . غير ان هذا الرأي ضعيف

ومنهم من قال انها من festisso اي مسحور ومحضور . ومحصّل المعنى : عبادة العروض او الاشياء المسحورة او المحضورة لظن عبدتها انّ الارواح او الجنّ تسكنها او تحضرها او تختلف اليها . وهذا الرأي اقبل من المذهب السابق . ومنهم من اثبت ان اللفظة من feitiço المحرّفة عن اللاتينية Factitius ومعناها « المصنوع او المعمول باليد » ثم نقل معناها الى « مكرّم ومسحور ومحضور » وهذا الرأي اصحّ من القولين الاوّلين

وعليه يكون البرتوغاليون هم اوّل من ادخل هذا الحرف في السنة ديار اوربا في منتصف القرن السابع عشر للميلاد . وقد اطلقوها على هذه الاشياء التي يكرمها السودان الذين رأوهم للمرة الاولى في ساحل افريقية الغربي . وهؤلاء السود يسمونها في لغتهم « غري غري او جوجو » . وبعضهم انكر ذلك وقال : انهم لم يسمّوها بهذين الاسمين الاّ نقلاً عمّن خالطهم من الافرنج والاّ فلهم غير هذه الالفاظ خاصة بهم وبلغتهم مثل : انكايزي وموكسو الى غيرها

واول من كتب من الافرنج كتاباً في هذه الديانة هو شارل ديروس Charles DeBrosses وسمّاه « بحث في الآلهة الفتيشية » Dissertation sur les dieux fétiches الفه سنة ١٧٦٠ وهو اوّل من استعمل في الفرنسوية لفظة فتيش وفتيشية . الاّ ان العرب كانوا قد سبقوا الافرنج الى معرفة هذه الديانة وملاحظتها في اهل المغرب وسمّوا هذه المعبودات

«بالدكاكير» وممّن ذكرها عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الاندلسي في كتابه المسالك والممالك . وقد توفي سنة ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م فيكون العرب سبقوا الافرنج في هذا الموضوع بمائة سنة . والدكاكير جمع دُكُّور بفتح الاوّل وضمّ الثاني المشدّد على وزن عُبُود . وقد تنصر فيقال دَكُّر بفتح الدّال المهملة وضم الكاف المشددة . واما العرب الاقدمون فسمّوها الدِكُر بكسر الدال المهملة واسكان الكاف . قال في تعريفها صاحب لسان العرب هي : « لعبة يلعب بها الزنج والحبش » والمراد باللعبة هنا ما يتخذهُ الاولاد من التماثيل ويلبسونهُ البسة كما يفعلونهُ الى يومنا هذا وهي المسماة عند الافرنج Joujou . واغلب عبّاد هذه الدكاكير الزنج والحبش ولهذا قال يلعب بها الزنج والحبش . وقال : « يلعب » لان هؤلاء اللغويين لم يستطيعوا ان يتصوروا ان بعض الزنج والحبش يعبدون هذه التماثيل فظنوا انهم يلعبون بها لصغر عقلهم واعتبروهم اطفالاً ولو كانوا بقامة الرجال

وقد ثبت اليوم ان عبادة الدكاكير معروفة ومنتشرة في غير الزنج والحبش فانها معروفة عند متوحشي اميركة ويسمّونها هناك « مانيتو Manitou » « واوكي Ocki » وعند همج سيبيرية ويسمونها « بُرْخان Pourkhan » وكذلك تُرَى في اوقيانية واواسط آسيا باسماء مختلفة . ولو كانت الدكاكيرية معروفة ايضاً في ديار الافرنج قبل انتشار النصرانية فيها . فان الصقالبة كانوا يعبدون الحصان والغاليون (وهم اجداد الفرنساويين) يعبدون الاشجار والجبال كما يعبد اليوم الاشانتي وهم من اقوام افريقية النسر والنهر المسمّى « تَنْدُو »

واشدّ الناس تمسكاً بهذه العبادة الفريبة اهل افريقية ولكلّ قبيلة او قوم من اقوامها عبادة لمخلوق من المخلوقات . فالوِيدَة تعبد نوعاً من الحية . والبَاغر تعبد الديك . والكَبَار القرش (وهو من اسماك البحر) . واهل داهومي يعبدون النمر . وسكان اودتي يسجدون لنهر ادِرّاي وهلمّ جرًّا . وسودان بلاد بنين يؤلهون (ما عدا ملكهم) الدويبة المعروفة باسم « ابي بُرَيْص » ويعتقدون ان ظلّهم هو ايضاً من قبيل الدكاكير . وفي افريقية قومٌ متوحشون غاية التوحش اسمهم الغالّو (بتشديد اللام) يعبدون الاشجار والاحجار والقمر وبعض الكواكب . وهذه الدكاكير آلهة عامة بين الاقوام وهناك دكاكير خاصة بكلّ فردٍ من اقوامهم فذكورهم اول شيء يقع تحت حسهم فنهم من يعبد الوَدَع المستدير ومنهم المحار وغيرهم عروق الاشجار وآخر سنّهُ التي تسقط من فمهِ او من فم غيرهِ الى مثل هذه الاشياء من منكرة او غير منكرة . وحالما يراها المتوحش يخرّ لها ساجداً الى الذقن ثم يوجه اليها صلواتهِ وادعيتهُ فان نجح في ما تمنّاهُ احلّها محلاً رفيعاً والاّ كسرها واتخذ لهُ الهاً آخر يستجيب دعاءهُ

وظن قوم من المحدثين ومتفلسفي هذا العصر ان عبادة الدكاكير في بدء كل دين وجد على وجه الارض فانهُ ينشأ طفلاً صغيراً على هذه الصورة ثم يأخذ بالترقي والنموّ حتى يستقل بذاته و يمتاز عن نَدّهِ او ضدهِ . وهذا وهم . وانما الدكاكيرية هي فساد في الدين وفي عقل صاحبها على حدّ ما ترى اناساً كانوا عقلاء ثم اصابهم مرض في داخلهم فافسد عقلهم فاخذوا يهذون ويهذرون . افيقال عن مثل هؤلاء : ان هذيانهم هذا من كليات عقلهم وارتفاعهِ في سلّم النشوء والارتقاء ام يقال فيهِ العكس

ووجود الدكاكيرية في بعض الناس مع انحطاط عقولهم يدلنا على هذا الامر وهو: ان القول بوجود إله خفي عن الابصار من الحقائق التي لا تفتى في الانسان مهما اصاب عقلهُ من الهويّ والتسفّل لان ذلك امسح فيهِ من قبيل الوجدان ليس الاّ

ومما يجب ان يلاحظهُ الباحث في عُبّاد الدكاكير شعائرهم الدينية التي يقومون بها عند الاحتفال باكرامها . فانها بوجهٍ عام قبيحة منكرة وغريبة يضحك منها . ويقال فيها انها لا تخلو من ذبح الانسان لها تقرُّباً وتزلفاً منها . وكهنة هذه الديانة يشبهون السحرة واهل الرق ويسمونهم « غربوط » في لسان بعض اهل افريقية و « جنكار » (اي مخرقين) عند بعض قبائل اهل اميركا . و « شامان » عند اهل سيبيريا الى غير هذه الاسماء

واما العرب فإنهم هم ايضاً كانوا يعبدون الدكاكير في عهد الجاهلية وتشمل دكاكيرهم ما تشمل دكاكير غيرهم اي الجماد والنبات والحيوان ونحن نذكر هنا ما عثرنا عليها

١ً : (الهُمّ من خيّس) (والخيس تمر يخلط بسمن واقط فيعجن ويُدلك شديداً حتى يمتزج ثم يُنذَر منهُ لوادٍ ورُبما جعل فيهِ سويق . فيكون حينئذٍ بقوام العجين فتتخذ منهُ صور وتماثيل تسمّى الواحدة منها جُمْجَرَة يلعب بها الاولاد ويخرّ لها سجّداً عباد الاصنام) وكان بنو حنيفة (باليمامة) قبل مسيلمة (الكذاب) اتخذوا في الجاهلية صنماً من خيس فعبدوهُ دهراً ، ثم اصابتهم مجاعة فاكلوهُ ، فقال رجل من بني تميم :

اكلت ربها حنيفة من جو ع قديم بها ومن اعوازِ

وقال آخر : اكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعه

(عن الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٠ . ومحيط المحيط وتاج العروس مادة ث ب ع)

٢ً : (ذات الانوار) قال صاحب التاج في مادة غ ر ب : الغرابي : حصن باليمن في جبل عالٍ في وسط البحر وكانت فيها شجرة تسمّى « ذات الانوار » عبدت في الجاهلية . اهـ

٣ً : (ذات أنواط) قال في كتاب اخبار مكة لصاحبه ابي الوليد محمد الازرقي ص ٨٢ كان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها : « ذات انواط » يأتونها كل سنة فيعلقون عليها اسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً . . . وكان من حجّ منهم وضع رداءهُ عندها (وفي الاصل المطبوع : « وضع زادهُ عندها » . ونحن نظن ذلك خطأ مستط من الناظر في طبع الكتاب . والاصح رداءهُ . والشجرة لم تسمَّ بذات انواط الا لتعليق الاسلحة والأزر والاردية عليها) ويدخل بغير رداء (وفي الاصل المطبوع بغير زاد) تعظيماً لها » . اهـ

٤ً : (نخلة نجران) كان اهل نجران يعبدون نخلة لهم وذلك قبل ان يتنصَّروا . وقد روى العرب في هلاك هذه النخلة وتنصير اهل نجران رواية نقلها بالوت وقال فيها ما نصهُ « وكان اهل نجران يومئذٍ على دين العرب يعبدون نخلة لهم عظيمة بين اظهرهم ، لها عيدٌ في كل سنة فاذا كان ذلك العيد ، علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوهُ وحليّ النساء » ثم ذكر كيف تنصَّروا

٥ً : (منَاة) وكانت صخرة . قال الازرقيّ : ان عمر بن لحيّ نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قُدَيداً وهي التي كانت للأزد وغسّان[1] يحجونها ويعظمونها فاذا ظافوا بالبيت وافاضوا من عرفات ونفروا من منىً لم يحلقوا الاّ عند مناة . وكانوا يهلون لها . ومن اهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما « تهبك محاود الريح . ومطعم الطير » . وكان هذا الحيّ من الانصار يهلّون لمناة . وكانوا اذا اهلّوا بحج او عمرة لم يظلّ احداً منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته او عمرته . وكان الرجل اذا أحرم لم يدخل بيتهُ . وان كانت لهُ فيهِ حاجة تسوَّر من ظهر بيتهِ . لان لا يجّن رتاج الباب رأسهُ . فلما جاء الله بالاسلام وهدم امر الجاهلية انزل الله تعالى في ذلك : « وليس البرّ بان تأتوا البيوت من ظهورها . ولكن البرّ من اتقى . » قال : وكانت مناة للاوس والخزرج وغسّان من الازد ومن دان بدينهم من اهل يثرب واهل الشام . وكانت على ساحل البحر من ناحية المُشلّل بقُدَيْد . وحدثني جدّتي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : اخبرني محمد بن السائب الكلبيّ قال : كانت مناة صخرة لهُذَيل وكانت بقُدَيد

٦ً : (اللاّت) قال ابن الكلبيّ : ان رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يسمع

(١) كانت غسان قبل ان تحلّ ديار الشام تعبد الاصنام وكان فيها قومٌ قد تهوَّدوا وقوم قد تنصروا . ولم يكونوا كلهم نصارى كما زعم بعضهم . وكلّ من حاول اثبات هذا الزعم لتثبت بحبال القمر

السمن من الحاج اذا مرّوا ، فيتّ سويقهم وكان ذا غنم فسميت « صخرة اللاّت » فلمّا مات ، قالوا فقدهُ الناس قال لهم عمرو : « ان ربكم كان اللاّت » فدخل في جوف الصخرة . انتهى كلامهُ.

بيْدَ ان العلماء والباحثين اثبتوا ان اللاّت تصحيف الإلاهة ويراد بها الشمس . فلعلّ قدماء العرب اهدوا تلك الصخرة للشمس وارفقوها لعبادتها . ثم اختلق المخلّف تلك الحكاية لمناسبة بين اللفظ والاشتقاق . وقد فعل العرب مثل ذلك كثيراً

٧ : (العزّى) قال ابن الكلبي : وكانت العزّى ثلاث شجرات سمُرات بنخلة . وكان اوّل من دعا الى عبادتها عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب . وقال لهم عمرو : إنّ ربكم يتصيّف باللاّت لبرد الطائف ويُشَتِّي بالعزّى لحرّ تهامة . وكان في كلّ واحدة شيطان يُعبَد . انتهى . وكلام ابن الكلبي على العزى طويل لا محلّ لايرادهِ هنا

٨ : (سَعْد) صنم كان بساحل جدة وهو صخرة طويلة

٩ : (الانصاب) جمع نُصُب بضم فسكون . وهي حجارة كانوا ينصبونها يذبحون عليها للاصنام . وكان الرجل اذا سافر فنزل منزلاً اخذ اربعة احجار فنظر الى احسنها فاتخذهُ ربًّا وجعل الثلاثة اثافيّ لقدرهِ . واذا ارتحل غيّرهُ . فاذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك . فكانوا يحرّون ويذبحون عندها ويتقربون اليها

١٠ : (ذو الخَلَصة) قال ابو المنذر ومن اصنام العرب « ذو الخَلَصة » وكانت مَرْوَة بيضاء (اي حجراً ابيض من جنس الحجارة الرقيقة البرّاقة) منقوشة عليها كهيئة التاج . وكانت بتبالة بين مكة واليمن على مسير سبع ليالٍ من مكة . وكان سدنتها بني امامة من باهلة بن أعصَر . وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وازد السراة ومن جاورهم من بطون العرب ومن هوازن . اهـ

على ان بعض العرب عبدوا الجبال او شيئاً منتصباً في الجبل ومن ذلك

١١ : (الفلس) وقد اختلف في ضبطهِ فمنهم من ضبطهُ بفتح وسكون كسقف . ومنهم من صحّحهُ وقال بضمتين كعنق . قال ابن حبيب : الفُلس (وزان عنق) اسم صنم كان بنجد تعبدهُ طيء . وكان قريباً من قُفَيد . وكان سدنتهُ بني برلان . وقيل : الفُلس : أنفٌ احمر في وسط أجإ (اسم جبل) واجأ أسوَد . اهـ

ولو اردنا ان نأتي على ذكر كل ما عبدوهُ من موجودات الكون من جماد ونبات لهذا يطول . وانما اجتزأنا بما اوردناهُ اطلاعاً للقراء ان العرب في عهد جاهليتهم عبدوا هذه

المخلوقات وكانت الذكاكير معروفة عندهم . وكل من كتب عن اديان العرب من اقدمين ومحدثين لم يتعرضوا بنوع خاص لهذا الباب او لم يلجوه الاَّ عرضاً فاحببنا ان نرصد له هذه النبذة قياماً بالواجب . وسوف نبين في فرصة اخرى انهم عبدوا بعض الحيوانات ايضاً دحضاً لمن انكر ذلك من كتَّاب هذا العصر ولمن قال بالخلاف من اهل العصور السابقة والله ولي التيسير والتوفيق

امكح

امارات الوحشية

في حيواناتنا الداجنة

اهتدى الانسان منذ ازمان بعيدة الى ادجان بعض الحيوانات وهو يستخدمها الآن لاغراض شتى : للحمل والجر وللطعم والملبس . فنحن نستخدم الفرس والحمار للحمل ونستخدم الثور في جر المحراث او غيره من الاثقال ونأكل لحمهُ ولحوم الخراف والمعز ونستعمل اصوافها في ملابسنا

واذا نحن نظرنا الى هذه الحيوانات من الوجهة البيولوجية وجدنا في اخلاقها وفي خلقتها دلائل الوحشية القديمة كما نلحظ ايضاً الاسباب التي جعلت الانسان يختارها ويدجنها دون غيرها من الحيوانات

فاول ما يلحظهُ الانسان في هذه الحيوانات انها كلها اجتماعية — اي انها تعيش مجتمعة اسراباً . فالخيل والحمير والثيران والخراف والمعز والفيلة والكلاب كانت تعيش عيشة اجتماعية وهذا ما يسَّر للانسان تذليلها وسهَّل عليها عشرتهُ . لان الحيوان الاجتماعي يختلف عن الحيوان الانفرادي — مثل الاسد والضبع — بقدرتهِ على التفاهم مع اخوانهِ وادراكهِ لحقوق الغير والطاعة لرئيسهِ عند اللزوم والنظر الى مصلحة السرب او القطيع العامة . وهذا ليس في الحيوان الانفرادي كالنمر والاسد والضبع فانها لانفرادها في معيشتها لا تعرف كيف تعامل افراد نوعها . فاذا تقابل اسدان اعتركا في الحال وقتل احدهما الآخر

والانسان لم يدجن الاسد والضبع والنمر ونحوها من الحيوانات الانفرادية اي التي تعيش منفردة او لم يستطع ادجانها لانها لا تدرك معنى الاجتماع وطرق المعاملة وحقوق الغير